

الخوف برؤية قرآنية

<"xml encoding="UTF-8?">



القرآن الذي استهدف أولا وأساسا تزكية النفوس وشفاء الصدور كما يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾ 1 ﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ...﴾ 2.

والقرآن الذي جاء لبناء الشخصية الإنسانية المتكاملة القويمة على وجه الأرض، هل عالج مشكلة الخوف، وهي من التوجهات والميول الرئيسية في نفس الإنسان... ومن العوامل القوية التأثير على شخصيته وسلوكه؟! أم تجاهلها وأعرض عنها؟!

بالأكيد ما كان يمكن للقرآن الحكيم أن يغفل عن هذه المشكلة ويتجاوزها وهو يسعى لتزكية نفس الإنسان وتوجيه سلوكه..

إن أزمة العلوم الإنسانية على وجه العموم وعلم النفس على وجه الخصوص هي أنه لا يزال بعيدا كل البعد عن جوهر الذات النفسية للإنسان، ومن ثم يأتي غالبا بأخطاء في التحليل النفسي، والغاية القصوى لعلم النفس، هي الوصول إلى مستوى يمكنه من الإحاطة بالنفس إحاطة متكاملة، لتوفير العلاج المناسب، وهذا ما لم يتحقق إلى الآن. بل ومازال علم النفس يعترف بقصوره عن الإحاطة بكل الحالات... والدليل على ذلك فشله في توحيد النظرية حول المشكلة النفسية الواحدة..

وما دام من ضرورة اعتقادنا بالله، أنه خالق الإنسان، ومدرِك لكل ما يعتريه من حالات.. فهو الوحيد القادر على الكشف عن حقيقة النفس الإنسانية، والقرآن هو كلام الله. وبيننا والكشف عن حقيقة النفس الإنسانية اعتماد طريقة الاستقراء فقد تمكننا من تشكيل منهج قرآني يوفر كل القواعد والأسس لدراسة النفس الإنسانية دراسة حقيقية توفر النتائج والعلاجات الحقيقية.

تحدث القرآن عن مشكلة الخوف في آيات ومجالات عديدة لو تفرغ لها باحث علمي متخصص لاستطاع أن يستنبط منها رؤية علمية سليمة.. ومنهجاً تربوياً متكاملًا..

وخلال جولة من التدبر في مجموعة من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخوف تبينت لي الملامح التالية لنظرية القرآن الحكيم حول هذه المشكلة.. تبلغ الآيات التي تتحدث عن الخوف بلفظة الخوف ومشتقاتها «134» آية في مختلف الشئون والمجالات.. أما التي جاءت بلفظة «الخشية» فحوالي «48» آية..

وهناك آيات عديدة تتحدث عن هذه المشكلة في جذورها أو أعراضها ومظاهرها وسائر ما يتعلق بها لم نتوفق لمتابعتها ودراستها والتدبر فيها وعسى أن يتوفق لذلك بعض المتخصصين إن شاء الله تعالى..

ومن المهم جدا أن ننتبه إلى أن القرآن الحكيم تشكل آياته توجيهها متكاملًا للإنسان وعلاجًا لمشاكله النفسية.. فالحقائق الكونية والعقائد المبدئية والأحكام والآداب كلها تلعب دورًا متكاملًا ومتفاعلًا في تزكية نفس الإنسان وعلاج مشاكلها ذلك إن معتقدات الإنسان وأفكاره التي يؤمن بها.. لها دخل كبير في صياغة نفسيته.. كما أن لنوعية القوانين التي يخضع لها والآداب التي يمارسها تأثيرًا بالغًا في توجهاته النفسية.. من هنا نجد أن حديث القرآن الحكيم عن مشكلة الخوف لا يأتي منفصلاً عن سائر جوانب الهدى الإلهي.. بل يجيء تارة ضمن التأكيد على حقيقة كونية.. أو التركيز على قانون اجتماعي.. أو في استعراض لحدث تاريخي تربوي.. وتلك هي طبيعة النهج القرآني العظيم..

واقعية الخوف

نعم هو شيء طبيعي أن الذي يتهده.. ولكن «الخوف» الذي يتحول إلى حالة مرضية ينتج عنها خلل نفسي هو الشيء غير الطبيعي ويسميتها علماء النفس بمرض «الخواف» أو «الفوبيا» وهي حالة من الخوف تتملك الإنسان في حالات مرضية استثنائية والتحليل النفسي يصنفها ضمن الأمراض العصابية وتنشأ عنها حالات مختلفة كالخوف من الماء أو البحر أو غيرهما من الأشياء.

السؤال: هل في إمكان الإنسان «أن يوجه هذا الميل الفطري نحو الأخطار الحقيقية الكبرى؟

نعم وذلك بتقوية الإرادة والإرادة عامل حاسم في الصحة النفسية وذلك بتوطين النفس على مقاومة حالات «الخواف».. وفي توجيهاتنا الإسلامية «إذا خفت من أمر فقع فيه»!

أن يخاف الإنسان الخطر ويخشاه فذلك شيء طبيعي وفطري في أعماق نفس الإنسان.. وليس عيبًا ولا نقصًا.. والمطلوب من الإنسان ليس اقتلاع جذور الخوف من النفس والقضاء عليه نهائيًا فهو أمر غير ممكن إنما المطلوب هو توجيه هذا الميل الفطري نحو الأخطار الحقيقية الكبرى التي تهدد مستقبل الإنسان.. وليس نحو بعض المخاطر الحاضرة البسيطة.

المطلوب أن يخاف الإنسان من مركز القوة والثقل التي تهيمن على العالم، وتسيطر على كل شأن من شؤونه وكل ذرة من ذراته وهي قوة الله سبحانه وتعالى وهيمنته وعظمته.

والمطلوب أخيرًا: ألا يكون الخوف عقبة وحاجزًا أمام الإنسان يمنعه من التقدم والاحتفاظ بالحرية والكرامة.. فالقرآن يعترف بواقعية الخوف لدى الإنسان، ولا يعتبره جريمة أو عيبًا في الأساس.. وإنما الجريمة تكمن في سوء الاستفادة وفي الإفراط في ممارسة الخوف.. وأن يصبح الخوف عقبة في طريق تقدم الإنسان وكرامته وحرية. إن القرآن ينقل لنا بعض الصور واللقطات من داخل وأعماق نفوس أنبيائه وأوليائه ليؤكد لنا واقعية الخوف وتجذره، حتى في تلك النفوس المختارة الزكية الطاهرة.

فالأنبيا والأولياء أيضًا يخافون ولكنهم يتجاوزون حاجز الخوف من الأخطار والمشاكل ويقمعونه داخل أنفسهم بقوة إرادتهم وبتسديد الله تعالى لهم..

1- فهذه أم نبي الله موسى تلك الولية المخلصة التي اختارها الله لتكون أم نبي من أعظم أنبيائه ولتضعه في تلك الظروف الحرجة.

لقد كانت تخاف على وليدها «موسى» من فتك «فرعون».. ويأتيها الوحي من السماء ليوجهها إلى استثمار ذلك

